الخزف والعمارة الإسلامية بين الماضي والحاضر

د. نزهات مفتاح البوعيشي

د.فاطمة عمران البريكي

كلية الفنون والإعلام – جامعة طرابلس

مقدمة

الخزف هذا الفن الخالد، الذي تكاد لا تخلو أية حضارة من الحضارات الإنسانية من ممارسته، وليس مصادفة أن يتعلق الإنسان بهذا الفن ويطوره بدءً من أواني المائدة إلى الألواح الرقم الطينية التي يكتب عليها، إلى تزيين المعابد ودور العبادة ثم أصبح فن مستقل يحاكي الفنون التشكيلية الأخرى. وهذا التناغم الروحي بين الإنسان والطين أزلي مستمر، فمنه خلق الإنسان واليه يعود، ولا غرابة في ذلك لان الله تعالى خلق الإنسان من طين .حيث قال تعالى في كتابه العزيز((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) (1) .

فن الخزف من أروع ما ترك لنا الفنان في العالم الإسلامي القديم بأصالة خاصة وإبداع متميز، فهو فن نتج من رؤية فنية لها استقلالها، ولقد اكتشفت قطع الخزف الإسلامي القديم في الفسطاط وسامراء والرقة والمدائن، وتبين أن هذه الأواني إنما صنعت للزينة أو لرجال الحكم .

وما يميز الفن الإسلامي عن غيره من الفنون كالتي ظهرت في الحضارات اليونانية القديمة، أو الحضارة الأوروبية الحديثة، إن الفن الإسلامي أقام علاقة متفاعلة بين الفن والمادة، فالفن الإسلامي ظل وحيداً من حيث الرؤيا الجمالية والفلسفية، ومن حيث الغاية والوظيفة فيما هو يتنوع في تحليلها، سواء على المعدن أو الخزف أو الورق أو الحجر أو الطين ... فلم تؤثر المادة على الجوهر الفني،

فالتآلف بينهما ضروريا على العكس الفنون الأخرى التي عرفتها تلك الحضارات[2]. وتعتبر الحضارة العربية الإسلامية، إلى جانب حضارة الشرق الأقصى، من أكثر حضارات العالم التي اهتمت بهذا الفن، وتعود أقدم النماذج المهمة في هذا الفن إلى بداية الحكم العباسي حيث تمكن الخزافون في العراق من الاستفادة من العلوم المزدهرة لاختراع تقنيات جديدة في طلي الخزف وتزيينه.

في العصور القديمة قبل الإسلام لم يكن للخزف قيمة تذكر، وذلك بسبب استخدام الحرفين الأواني المعدنية من الذهب والفضة دون غيرها، وبالتالي لم يهتموا بالأواني التي تصنع من الفخار، ولما جاء الإسلام حَرَّم البذخ والتعالي في استعمالات أدوات الزينة والأواني المصنوعة من الذهب والفضة، مما كان لهذا الحرمان أطيب الأثر في العناية بصناعة الخزف وابتكار أنواع جديدة؛ لتحل محل الأواني المعدنية. فظهر لأول مرة الخزف ذو الزخارف البارزة تحت طلاء مذهب الذي يعتبر التجربة الأولى لابتكار الزخرفة بالطلاء ذي البريق المعدني في البصرة بالعراق في القرن التاسع الميلادي، الذي يُعَدُّ ابتكارًا إسلاميًّا خالصًا غير مسبوق في الحضارات السابقة على الإسلام، ولم يتوصل له الصينيون بالرغم من عُلُوِّ شأنهم في مجال صناعة الخزف والبور سلين. وانتقل الخزف العربي من مرحلة تقليد الخزف الصيني إلى مرحلة الابتكار وإبراز الشخصية الفنية العربية، وانتشر هذا النوع الجديد من الفن الخزفي بين العراق موطنه الأصلي إلى مصر حينما دخلها أحمد بن طولون، ووصلت صناعته إلى درجة ممتازة من الرقي في العصر الفاطمي. مثل الزخارف النباتية والهندسية، وكتابات بالخط الكوفي الجميل[3].

ومساجد ليبيا القديمة كنموذج للدراسة حيث وظف الخزف بشكل كبير في المحاريب وكسوة في جدران المساجد والقباب مثل جامع شايب العين وجامع القرمالي وجامع قرجي خير مثال علي دلك،ثم أصبح استخدمه يقل تدريجيا في

المساجد الحديثة بسبب عدم توفر مصانع للخزف المزخرف واكتفاء المصانع المحلية بالمنتجات التجارية.

أهمية البحث :-

1-أبراز جماليات الخزف في العمارة الإسلامية في المساجد .

2-كشف النقاب عن العلاقة بين فن الخزف والعمارة .

أهداف البحث:-

يهدف هدا البحث إلي التعريف بفن الخزف واستخدامه في العمارة الإسلامية عبر العصور. ودلك من خلال إلقاء الضوء علي دراسة لاستخدامه كعنصر جمالي لكسوة جدران المساجد الليبية من الداخل والخارج .

مشكلة البحث :-

يعبر المسجد عن الجانب الروحي والديني للمدينة، فهو في إطار ما يمثله من مجموعة عمرانية، يعطي صورة عن الجوانب المعمارية، سواء في إتقان البناء أو نظام العمارة وطرزها وكذلك في أسلوب الزخرفة والتزيين الجميل.. والمسجد يتقدم عن غيره من المباني، إذ يأخذ دائماً أحسن عناصر ومنشآت المدينة، ويحظى بالاهتمام الأكبر من جوانب العمارة، ويناقش هدا البحث الأسلوب المعماري المستخدم في المساجد الحديثة والابتعاد عن الهوية التاريخية لفن العمارة الإسلامية وتقنية الزخارف المعمارية. واليوم المتتبع لبناء المساجد في البلدان الإسلامية نجدها تفتقر للروح الجمالية وفنون العمارة الإسلامية، ويتم بنائها بشكل تقليدي بعيدا عن الإبداع، حتى أن كل المساجد التي تم بناؤها خلال العقدين الماضيين تغفل الأشكال المعمارية للمساجد التي كانت متبعة تاريخيا مثل الشكل المغربي، والأندلسي، والسلجوقي، والهندي، والعثماني أيضا. وعلي الرغم من أن هده التقنية

كانت موجودة في المساجد الليبية واضمحلت في المساجد الحديثة ومن ضمن أسباب هدا الاضمحلال أن المساجد أصبحت تبني بمجهودات ذاتية.

الخزف في العمارة الإسلامية في الماضي:-

إلى جانب الرخام و الجص فقد برع الفنانون المسلمون في استخدام مختلف أنواع البلاطات الخزفية لتغطية المحاريب. وكان أول ظهور لبلاطات الخزف في المحاريب عبر عدد من بلاطات الخزف ذي البريق المعدني صنعت في سامراء بالعراق ثم أرسلت ليزين بها محراب سيدي عقبة بالقيروان وهي باقية إلى يومنا هذا.وقد تنافس الغرب الإسلامي مع الشرق في الشغف باستخدام الخزف لزخرفة المحاريب. ففي بلاد المغرب والأندلس، وخاصة في عصر الموحدين استخدم "الزليج" بزخارفه الهندسية الدقيقة والمتعددة الألوان على نطاق واسع حتى بات من مميزات الفن الإسلامي الرئيسة هنالك.

استخدام البلاط الخزفي لتغشيه المحاريب في المساجد

أما الخزافون في الشرق الإسلامي فقد أثبتوا جدارتهم بزيادة هذا الفن من خلال استخدام بلاطات الخزف ذي البريق المعدني والخزف ذي اللون الأزرق الفيروزي لتغطية وزخرفة حنايا المحاريب ، وحمل لواء الإبداع في بداية الأمر مدينة قاشان قبل أن تتبعها مدن أخرى مثل تبريز وسمرقند وبخارى وأمد والري ، ولكن بقي لقاشان الفضل الأوفى حتى صارت بلاطات القاشاني أسما على كل البلاطات الخزفية مهما كان مصدر إنتاجها أو نوع زخارفها . وقد حفلت محاريب البلاطات الخزفية بالكتابات النسخية التي تحوي آيات من القرآن الكريم إلى جانب الزخارف النباتية المعروفة بالتوريق أو الأرابيسك، واستخدمت المقرنصات الخزفية أيضاً لتزيين طواقي المحاريب مثلما نرى في محراب جامع يزد ومحراب جامع قليان في بخاري. وقد لحق الأتراك العثمانيون بركب المحاريب الخزفية فنراهم يستخدمون بلاطات الخزف المنتجة في أزنيك ليس فقط لتغشيه المحاريب بل ولكسوة جدران المساجد من الداخل أيضاً. ومهما يكن من أمر مواد المحاريب وأنواع زخارفها التي تخرج عن كل حصر فقد جرت عادة المعمار الإسلامي على أن يوضع المحراب في منتصف جدار القبلة بالضبط ليتخذ محوراً لتوزيع فتحات النوافذ على جانبيه بالتوازن المأثور عن الفن الإسلامي .

الطرز الإسلامية الفن في خدمة الحياة :-

تتميز الفنون الإسلامية بأن هناك وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن تتميز أي قطعة أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي، ولعل هذا السر من أسرار تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفائقة على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار بصبغة واحدة، على أن هذه الوحدة لم تمنع من وجود طرز إسلامية تتميز بها الأقطار الإسلامية المختلفة في عصور تطورها الفني. ويمكننا أن نقول بوجه عام: إن الطراز الأموي ساد العالم الإسلامي

أولاً متأثرًا بالفنون المحلية، ثم ساد الطراز العباسي منذ قيام الدولة العباسية عام 750م، وعندما ضعفت الخلافة العباسية منذ القرن السابع الميلادي سادت طرز أخرى إقليمية فكان هناك الطراز الأسباني المغربي في شمال أفريقيا والأندلس، وطراز مصري سوري في مصر وسوريا، وطراز عثماني في تركيا والبلاد التي كانت تتبعها، ثم طراز هندي في الهند.. ومن واجبنا أن نكون على معرفة بهذه الطرز الفنية، وكيف تميزت بميزات خاصة في إطار الوحدة الفنية الإسلامية الكبرى[4].

1-الطراز الأمَـوي:

العناصر الزخرفية لهذا الطراز مزيجًا من جملة عناصر ورثها عن الفنون التي سبقته، فبينما تظهر فيه الدقة في رسم الزخارف النباتية والحيوانية، ومحاولة تمثيل الطبيعة وغير ذلك مما امتازت به الفنون البيزنطية، نجد تأثير الفن الساساني في الأشكال الدائرية الهندسية وبعض الموضوعات الزخرفية الأخرى كشجرة الخلد.

2- **الطراز العباسي:-**

يمتاز الطراز العباسي، كما تمتاز الأساليب الفنية المأخوذة عنه ومنها الطراز الطولوني في مصر، بنوع من الخزف له بريق معدني كانت تصنع منه آنية يتخذها الأغنياء عوضا عن أواني الذهب والفضة التي كان استعمالها مكروها في الإسلام لما تدل عليه من البذخ والترف المخالفين لروح الدين الإسلامي. هذا فضلاً عن استخدام الجص بكثرة في تهيئة الزخارف حتى أصبح من المواد ذات الصدارة في هذا الطراز الإسلامي. والتحف التي تنسب إلى هذا الطراز متأثرة إلى حد ما بالأساليب الفنية الساسانية، وأكثر ما يظهر هذا في التحف المعدنية وفى المنسوجات التي كانت تصنع في العراق وإيران في القرنين الثاني والثالث الهجريين

(8،9م). كما أن طريقة حفر الزخارف في الخشب أو الجص اتخذت طابعًا خاصًا كان وقفًا على هذا الطراز دون غيره وهى طريقة الحفر المائل أو منحرف الجوانب.

3- الطراز الإيراني :-

كانت إيران منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري (7م)، في طليعة الأمم الإسلامية عناية بصناعة التحف النفيسة.وعندما أتيح للسلاجقة في القرن 5 هـ (11م) أن يستقروا في إيران، ظهر طراز سلجوقي، امتاز بالإقبال على استخدام الكائنات النسخية المستديرة، فضلا عن الكتاب الكوفية التي كانت تجمل بالفروع النباتية. وينسب إلى العصر السلجوقي، أولى مدارس التصوير في الإسلام، وأصبحت خراسان ومدينة هراوة مراكز ممتازة لإنتاج التحف والأواني من النحاس والبرونز المكتف بالفضة والمزدانة بأشرطة من الزخارف الكتابية، وقد شاع في العصر السلجوقي، استخدام بلاطات الخزف في تغطية الجداران. كما ظهرت أنواع من الخزف ذي البريق المعدني، أما التحف المعدنية في الطراز ألصفوي، فقد غلبت عليها رسوم الفروع النباتية والصور الآدمية والحيوانية . ويمكن اعتبار هذا العصر من الناحية الفنية أقوى العصور في إيران على الإطلاق.

4- الطراز الفاطمي :-

للتحف الخزفية الفاطمية لمعان وبريق أخاذ، أما تغير ألوانها فمرجعه البريق المعدني الذي تمتاز به، أما الزجاج فلم تكن زخارفه في بداية العصر الفاطمي تختلف كثيرًا عن زخرفته في عصر الطولونيين ولكنها أخذت تتطور بعد ذلك في خطوات سريعة ليكون لها الطابع الفاطمي الخاص، ومن أرق المصنوعات الزجاجية الفاطمية وأكبرها قيمة فنية الزجاج المزين بزخارف ذات بريق معدني. وقد استخدم الفاطميون البلور الصخري في عمل كئوس وأباريق، وعلب وصحون، وفنجانين وأطباق، وقطع شطرنج وأختام وزجاجات متنوعة الأشكال، وكانت تزين بزخارف

مقطوعة قوامها حيوانات أو طيور أو فروع نباتية مرسومة بدقة وانسجام فضلاً عن كتابات دعائية.

5- الطراز المملوكي :-

صناعة الفسيفساء الرخامية من الصناعات الدقيقة التي حذقها الفنانون في عصر المماليك وتتكون من مكعبات صغيرة من الرخام مختلفة الألوان وتعشق في الأرضية على هيئة الأشرطة أو المعينات أو المثلثات أو الخطوط المتقاطعة والمتشابكة،وكان أكثر استعمالها في المحاريب بالمساجد. وازدهر في عصر المماليك خط النسخ واحتل مركزًا ساميًا وصار من أهم العناصر الزخرفية على التحف من معدن وخزف وعاج ونسيج، كما استخدموه في كتابة المصاحف المملوكية التي كانت تكتب للسلاطين لتوقف بأسمائهم في المساجد.

6-الطراز المغربي:-

يبدأ الطراز المغربي الصحيح في الأندلس والمغرب على يد دولة الموحدين، ويلاحظ أن الزعامة الثقافة في العالم الإسلامي المغربي كان مركزها في الأندلس في عصر الدولة الأموية الغربية وفى عصر ملوك الطوائف، ثم انتقلت هذه الزعامة إلى مراكش في نهاية القرن 11م. ومن أبدع العمائر التي خلفها لنا هذا الطراز قصر الحمراء بغرناطة الذي يعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ويمتاز بجمال مبانيه ورشاقة أعمدته ذات التيجان المزخرفة بالمقرنصات، والجدران المغطاة بشبكة من الزخارف الجصية والكتابات الجميلة. ومن المنتجات الفنية التي ازدهرت في الطراز المغربي تجليد الكتب وصناعة التحف الجلدية عامة، أما صناعة الخزف فقد ازدهرت في الطراز المغربي أيضًا.ويعتبر الطراز المغربي أقرب الطرز إلى الطراز المملوكي.

7- الطراز التركي :-

سقط السلاجقة في القرن 8هـ/ 14م، وآل الحكم في آسيا الصغرى إلى آل عثمان الذين استطاعوا الاستيلاء على القسطنطينية سنة 857هـ /1453م، ولعل خير ما أنتج الترك من أنواع الفنون تظهر واضحة فيما خلفوه من تحف الخزف والقيشانى والسجاد والأقمشة الحريرية والقطيفة والمخطوطات. أما الخزف التركي فيمتاز بألوانه الجميلة وما فيه من رسوم الزهور والنباتات، أما السجاجيد التركية فهي تعد بحق من أبدع الفنون الشرقية، والتي تمتاز بالزخارف الهندسية البحتة، وسجاجيد الصلاة الصغيرة النفيسة ويمتاز معظمها برسم محراب في أرض السجادة.

8 – الطراز الهندي :

يعتبر الطراز الهندي أقرب الطرز إلى الفن الفارسي، وقد تبلورت شخصية الطراز الهندي اعتبارا من القرن السادس عشر، وأصبح له طابع مميز وظواهر معمارية خاصة، أما التصوير فقد امتاز بهدوء الألوان والقرب من الطبيعة ورسم الصورالشخصية، وتمتاز العمائر الهندية باستخدام العقود الفارسية،والمآذن الأسطوانية، والقباب البصلية، والزخارف الدقيقة.

الفن الإسلامي في المساجد :-

بالعودة لبداية ظهور الإسلام، فقد انتشرت المساجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى شملت كل أجزاء الجزيرة العربية، وازداد انتشارها بفضل الفتوحات الإسلامية، وكانت العمارة مستمدة من فنون العمارة في العصور القديمة، وحينما تجاوز الإسلام حدود الجزيرة العربية منتشراً في المناطق التي كانت خاضعة لسيادة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، ورث عن هاتين الإمبراطوريتين تقاليدهما المعمارية والعمرانية، التي كانت أصلاً ممتزجة بالتقاليد الفنية المحلية لمناطق نفوذهما، وطبقها على بناء المساجد.

المساجد وتقنيات البناء قديما وحديثا:-

الفنون بصفة عامَّة مظهرًا مهمًّا من مظاهر الثقافة السائدة في المجتمع،و بصفة خاصَّة كان الفنَّ الإسلامي يُعَدُّ من أنقى وأدقِّ صور التعبير عن الحضارة الإسلامية، والمساجد القديمة خير مثال، وهو ما لم يَلْقَ من الدراسة والتحليل ما هو جدير به، وتم إهماله حتى وصلنا لما نحو من الإسهامات المعمارية القديمة في فن عمارة المساجد والتي هي مهملة الآن تقنية القباب والظاهرة جلية في مسجد قرجى ومسجد القرمالي ومسجد شايب العين، حيث برع المسلمون في تشييد القباب، وكانت هذه القباب تعطي شكلاً جماليًّا رائعًا للمساجد، ويكفي أن تنظر إليها كمثال لهذا الجمال حتى تدرك عظمة الحضارة الإسلامية.

تقنية المقرنصات:-

التقنية المهملة الثانية هي تقنية المقرنصات والتي كانت من أبرز خصائص الفنِّ المعماري الإسلامي، وتعني الأجزاء المتدلِّيَة من السقف، والمقرنصات منها داخلية وخارجية: انتشرت الداخلية في المحاريب والسقوف، وكانت الخارجية في صحون المآذن وأبواب القصور والشرفات

تقنية الصوتيات:-

أما تقنية الصوتيات المعمارية، فقد أهملها المعماريون الجدد تماما، وقد استخدم التقنيون المسلمون القدامى خاصية تركيز الصوت في المباني المقعرة والمجوفة لتركيز الصوت خاصة في المساجد الجامعة الكبيرة؛ لنقل وتقوية صوت الخطيب والإمام في أيام الجمعة والأعياد؛ مثال ذلك: مسجد أصفهان القديم، ومسجد العادلية في حلب، وبعض مساجد بغداد القديمة؛ حيث كان يُصَمَّمُ سقف المسجد وجدرانه على شكل سطوح مُقَعَّرَةٍ، موزَّعة في زوايا المسجد وأركانه بطريقة دقيقة؛ تضمن توزيعا للصوت بانتظام على جميع الأرجاء.

تقنية العقود:-

والتقنية الأخيرة المهملة حاليا هي تقنية العقود والتي تتضح جليا في تصميمات المسجدالأموي، وعُمِّمَ استخدامه بعد ذلك؛ بحيث أصبح عنصرًا مميِّزًا للعمارة الإسلامية، وخاصَّة في بلاد المغرب والأندلس، ثم اقتبسه البناة الأوربيون، وأكثروا من استخدامه في بناء كنائسهم وأديرتهم.

مما سبق يتضح أن المدرسة الإسلامية هي مدرسة فنية متكاملة ضمّت أنواع الفنون جميعها، وأسهمت في بناء الحضارة الإنسانية، ويتبقى فقط للجيل الحالي محاولة دراستها والاقتداء بها.

نموذج للمساجد القديمة والحديثة في ليبيا:-

1- تميز المعمار الإسلامي بجماليات المساجد القديمة التي غطيت جدران القاعة فيها إلى ارتفاع كبير بقطع البلاط الخزفي "القيشاني" ذي التشكيلات البديعة والألوان المريحة للعين، وتعلو هذه البلاطات نقوشات مطبوعة على قوالب الجبس تضمنت كتابات وإشكالا هندسية مستوحاة من تجليات البيئة الإسلامية، ويتوسط البلاط الخزفي والقوالب، شريط عريض من الجص نقشت عليها آيات قرآنية أو بعض الكلمات. ومسجد قرجي ومسجد القرمالي وشائب العين وغيرهم كمثال لذلك حيت استخدام فيهم نفس النمط الهندسي وتقنية الزخارف .كما هو موضح في الصور التالية :-

1- جامع مصطفي قرجي 2- جامع احمد باشا القرمالي

3- جامع شائب العين

أما المساجد الحديثة لقد تلاشي فيها العنصر الجمالي المتبع في القباب والمحاريب والحوائط حيث أصبحت خالية من العناصر سالفة الذكر كما هو موضح في

مسجدي (الجويلي– الخشيبات) بمدينة طرابلس اللذين أنشا في الفترة ما بين (2002–2004 م) واستبدلا بالجدران الإسمنتية والدهانات العصرية في الحوائط.وأصبحت المحرايب عبارة عن تجويف بسيط داخل حائط القبلة كما هو موضح فيما يلي:–

3– جامع الجويلي

4- جامع الخشيبات

الخلاصة والنتائج :-

من خلال الدراسة التي أجريت علي تقنية عمارة المساجد في الماضي والحاضر في ليبيا توصلنا للاتي :

1- لم يراع في تصميم المبنى الحديث للمساجد الطراز المعماري أو الخصوصية التاريخية والأثرية .

2- فقدان العناصر الجمالية للعمارة الإسلامية في المساجد الحديثة .

3- اختفاء الفن الإسلامي المتمثل في استخدام زخارف الفسيفساء والخزف والتي تعتبر من أقدم الزخارف التي برع فيها الفنان المسلم في ظل طراز معماري إسلامي.

4-الاكتفاء بالجدران الأسمنتية والدهانات العصرية في داخل المساجد باعتبارها اقل تكلفة .

التوصيات :-

1- الرجوع إلي الصناعات التقليدية لأنها كانت مهتمة بتصنيع البلاطات الخزفية .

2- الاهتمام بالفخار و الخزفيات لما يمثله من أهمية لهذا الشعب كأقدم الصناعات التقليدية التي عرفها الإنسان على هذه الأرض وارتبطت بالتطور الحضاري.

3- توجيه الحرفيين إلى هذه الصناعات التقليدية لأهميتها السياحية والفنية والثقافية لحياة المجتمع، و التصدي للتيارات الثقافية الوافدة المؤثرة .

4- اهتمام الأوقاف بالمساجد والإشراف عليها للحفاظ علي التراث المعماري .

5-اهتمام المعماريين بالجانب الفني في العمارة الإسلامية وتوظيفها في بناء المساجد .

المراجع :-

1- القران الكريم ،الآية 7،من سورة السجدة .

2- الصائغ ، سمير،(الفن الإسلامي)، دار المعرفة، بيروت، 1408هـ، 1988م.

3-توفيق أحمد عبد الجواد تاريخ العمارة والفنون الإسلامية(**الجزء الأول** في العصور الأولى)،الطبعة رقم 1.

4- د. عادل الألوسي .روائع الفن الإسلامي، 2003م